٨

حلقات قصصية

عيون المرآة

قلم إبليس

محمد حياه

حلقات قصصية

عيــون المِــرْآة

خدَعتْك عَيناك عندما أوهمتكَ أنك عندما تقف أمام المرْآة ترى بها الحقيقة؛ فالحقيقة قد رأتها عيون المرْآة دون أي تزييفٍ منك؛ فاحذر من تلك العيون؛ فقد تبوح بتلك الحقيقةِ في يومٍ من الأيام.

الحلقة الثامنة

قلم إبليس

تتتتتتتششششششششش

-مرحبًا بك أستاذ عماد كما رغبت أن تسمي نفسك أهلًا بك في عيادتي المتواضعة، أنا طبيبك من الأن وحافظ سرك إلى الأبد، فلا تجعل التوتر والقلق يشغل بالك بأي شكل من الأشكال، أنت قادم من أجل أن تشعر بالراحة، وهذا هو هدفي بكل تأكيد، فما عليك إلا أن ترخي عضلات جسدك تمامًا، تتنفس ببطء وراحة، تغمض عينيك مع الزفير وتفتحهما مع الشهيق، أنت الأن تجلس على شاطئ كبير لجزيرة ليس بها سواك، فلا تخف من شيء وأخرج ما تريد من أسرار فلن يسمعك أحد، يمكنك ألان أن تبدأ من حيث ما تريد فأنا منصت لك بكل تركيز.

•أنا..أنا لا أعرف من أين ابدأ؟ من أين كانت البداية؟ لا أعرف، لا أعرف صدقني يا دكتور لا أعرف، هل كنت أعاني من هذا الشيء اللعين منذ طفولتي؟ لا أعرف، هل كنت السبب في إذاء أحد قبل أن أكتشف ما في؟ لا أعرف، هل سوف أكون سبب في إذاء أحد مستقبلًا؟ لا أعرف، ولكن هذا ما أتى بي إليك، فأنا لا أريد ذلك حقًا لا أريد، أشعر بشعور يقيني أنه أصبح يسيطر علي بشكلًا كبير، فأنا في صراع معه منذ فترة طويلة.

-هل يمكنك أستاذ عماد ان تبدأ من حيث إكتشافك لسبب معاناتك تلك؟

•كما تحب، كنت طالب في كلية أداب قسم الأدب الروسي الفرقة الثالثة، طلب منا استاذ مادة القصة أن نلخص احدى القصص للقصصي الروسي "أنطون تشيخوف" وكانت بعنوان "في الخور" كانت قصة بسيطة عن الريف الروسي في هذا العهد من الزمان والحديث عن النظرات الطبقية، وما أن شرعت في تلخيص تلك القصة إلا وأن غرقت في بحر من الخيالات لم تنتهي إلا بكتابتي لكلمة "تمت"، ثم أغلقت الدفتر وذهبت للنوم وفي الصباح ذهبت لكلية وسلمت الملخص دون أن أراجعه أو أقرأه حتى من باب الفضول أو الفخر بإنجازي، وبعد أسبوع من تسليم ملخص القصة جاء موعد محاضرة أستاذ المادة والتي سوف يعلن فيها عن أفضل ثلاثة قاموا بالتلخيص الأمثل، وما أن بدأ المحاضرة حتى أخرج ملف من حقيبته، ملفًا أسودًا يشبه الملف الذي وضعت به ملخصي، وقال بصوت عالي مناديًا على أسمي وهو يرفع الملف عاليًا.

تتتتتتتششششششششش

•لم اتوقع هذا الفعل المباغت منه هل فزت وسوف يعلن عن فوزي بهذا السرعة، فهذا الملف يشبه ملفي بشكلًا كبير، ولكن نبرته لم تنم على إستعدادها لقول أخبارًا سارة، تلجلجت في رفع يدي، فأعاد سؤاله عني بصوت أعلى وحاد أكثر هذه المرة، فأنتفضت من مكاني واقفًا فنظر لي وأفترشت شفتاه إبتسامة لم تريحني، ثم أشار لي بأن ألتي له، فبلعت ريقي وتقدمت نحوه بخطوات تتشبث في الأرض

حتى وصلت حده، فأمد لي بالملف الأسود الذي تبينت أنه ملفي عندما رأيته عن قرب، وطلب مني أن اقرأ من ملخصي الصفحة الأخيرة بالكامل والتي كانت تقول "مر أنيسيم بين المهنئين الذين قلبوا العُرس لحفلًا صاخب يملئه الهوس بالخمر والرقص، وأقترب من برميل الفودكا الخشبي وسكب بداخله سائل غريب وهو يبتسم منتشيًا وبعد لحظات بدأ يشارك الجميع الرقصة الروسية الشهيرة ويضرب بأقدامه الأرض وكأنه يعزف لحنًا ولم يقطع إنسجامه هذا صراخات من حوله التي بدأت تتزايد وتتعالى ثم إمتزجت بتأوهات وأنين، لقد أصبحوا يتساقطون كورق شجرة جافة في صدر الخريف، وهو يرقص على أنغام الموسيقي التي أمتزجت بنحيبهم الأخير، حتى أنهى رقصته ولم يبقى أحد يقف على قدميه سواه، فأنحنى مبتسمًا وكأنه يُحيّ جمهوره بكبرياء وغرور، وهنا قد إنتهت أسطورة القرية التي أكل فيها الشماس الكافيار بشراهة"
تتتتتتتتشششششششششششش

•أنا أعلم القصة جيدًا وأعلم أحداثها بكل دقة، ما قرأته لا يتصل بقريب أو بعيد من القصة، بل تحولت القصة لشيء دموي بشع مخيف، لم أستفيق من الصدمة حتى هاجمني المحاضر بالتعنيف والتوبيخ كيف لي أن أفسد أحداث قصة أصلية وأُحرّف فيها من خيالي البشع ما أضفت، كيف أجرؤ على فعل ذلك ثم طردني وأقسم أنني لن انجح في مادته قط، خرجت والذهول عنوان ملامحي، أنا لم أكتب هذا؟ ولماذا

من الأساس أُحرّف في أصل القصة؟ ولم يكن هذا المطلوب، المطلوب كان التلخيص وكفى، يومها لم أبرح غرفتي كنت جالسًا على مكتبي الصغير أفكر فيما حدث، أنا أذكر أحداث القصة جيدًا، ولكن لا أذكر شيء عن تدويني للملخص وكأن هذا الحدث من تاريخي قد تم محوه.
طالت غيبتي عن الكلية حتى زارني صديقي محمود وأخبرني أن أستاذ المادة طيب القلب يمكن أن يسامحني في فعلتي النكراء تلك، إذا ذهبت له ومعي تلخيص قصتين إضافتين لنفس الكاتب إثبات مني أني مجتهد وأني متمسك بالنجاح في مادته، بالفعل حديثه شجعني كثيرًا وبحثت عن عدة قصص لنفس الكاتب حتى قمت بإختيار قصتين له كانا بعنوان "اللعوب" و "كاشتانكا"، وبفعل جلست لابدأ في كتابة الملخص لأول قصة بعد أن قرأتها عدة مرات وأخرجت منها النقط المهمة والعناصر والعنواين الرئيسية وكانت قصة "اللعوب"، ما أن أمسكت القلم وشرعت في الكتابة حتى هاجمتني خيالات تلك القصة وأستولت على عقلي ولم تتركتني إلا وقلمي يوقع على نهاية الورقة بعد كلمة تمت، تركت القلم وبدأت في قراءة ما دونته، إتسعت عيني رعبًا وإنفرج فمي ذهولًا وإلتفت حولي لأتأكد أنه لم يكن معي أحد بالغرفة، إذن أنا من كتب هذا، أنا من كتبت هذه المشاهد التي غرقت في الدماء والقتل والسادية المفرطة، فلقد حولت البطلة أولجا المحبة للفن وزوجها

الطبيب ديموف الطيب اللين لقتلة يتلذذون بقتل مرضاهم وتشريح جثثهم، هذا ليس أنا، ولكن من؟
حاولت عدة مرات إعادة المحاولة فكان يتكرر كل شيء إلا المشاهد الدموية فكانت تزداد قسوة وعنف، أخذت ما كتبت وذهبت مهرولًا لصديقي محمود والذي كان يساعد والده في مطبعته الخاصة، جلست أمامه صامتًا بلا تعبير ورميت أمامه ما كتبته، فلملمه وهو ينظر لي بإستغراب ثم بدأ في قراءة الملخص، ظهرت عليه علامات الدهشة ثم التعجب ثم التركيز الشديد حتى أنهاها ووضع الأوراق أمامه وأخبرني أن القصة ممتعة جدًا رغم غرابتها، ذهلت لما قاله كيف لتلك البشاعة أن تنال إستحسان أحد كان، فتحداني وأخبرني أن أتركها له للغد وسوف يثبت لي صحة رأيه، وبالفعل تركته وتركت معه قصتي الغريبة، حتى جاءني هاتف منه مساء اليوم التالي ويخبرني أن أحضر لمقر مطبعة والده حالًا، وبالفعل ذهبت له لأجده يقف بجوار رجل في أواخر الأربعينات من العمر منمق المظهر يرتدي العوينيات الدائرية، عرفني عليه محمود بكثير من الترحاب أنه السيد عبدالفتاح نظمي يمتلك دار نشر ولقد عرض عليه قصتي وقراءها ونالت إستحسانه ورغب في مقابلتي وجهًا لوجه، فجلسنا بمكتب والد محمود وهناك أبدي السيد عبدالفتاح إعجابه بقلمي وبقصتي وجراءتي في وصف المشاهد برغم ما فيها من قسوة ودموية، وأنه متحمس في نشر أول رواية لي وعرض علي مبلغ سخي.

تتتتتتتششششششششش

•لم أكن مصدق هذ العرض الذي لا يرفض بكل تأكيد، أخذت وقتي حتى أهيء نفسي للكتابة وما أن دخلت غرفتي وأمسكت القلم حتى أسلمت نفسي للخيالات المحتلة لعقلي والتي نجحت في إنتاج شيء نال أعجاب أحد ما، بعد عدة أيام قليلة إنتهيت من كتابة الرواية التي لم أحاول قراءتها فكنت أخاف أن أفعل ذلك فأنا أنسان لا أحب العنف بالمرة، وأرسلت الرواية للناشر الذي تفاجئ في سرعتي في الكتابة، وتفاجئ أكثر عندما قرأ الرواية وأعلن إنبهاره بالرواية بشكلًا لا يوصف، حتى إنه طلب مني توقيع معه عقد إحتكار لمدة عشرة سنوات أو عشرة أعمال، ولي مطلق الحرية في الاختيار بينهما فكان العرض المادي لهما مغريان بشكلًا كبير لا أنكر ذلك، وقعت عقد بعشرة روايات، وحولت من قسم الأدب الروسي إلى قسم المكتبات فلقد علمت أن نجاحي في مادة القصة لن يحدث ما حيت.

هل سوف تنال تلك البشاعة إعجاب أحد؟ هل لتلك القسوة والدموية والتحريض على عنف أصبحوا ملجئًا لي في صياغة الألوان الأدبية؟ لم أعرف إجابة لتلك التساؤلات إلا بعد أن تفاجئت بالنجاح الرهيب للرواية بين الأوساط الأدبية، وحازت على إعجاب الجمع الأكبر من القراء، وإنتهت الخمس طبعات الأولى في أقل من أسبوعين، وهنا علمت أني معي كنز يجب أن أستغله بالشكل الأمثل، بدأت في كتابة الرواية الثانية والثالثة حتى أصبح لي في السوق

الأدبي اثنى عشر رواية وذاع صيتي وأصبحت من أنجح الكُتاب الشباب في فترة وجيزة، ورغم أني كنت أشترط على ناشر أعمالي أن لا أحب حفلات التوقيع أو المقابلات الأعلامية أو الصحفية تحججًا بأني إنطوائي كثيرًا ولدي رُهاب الخلاء وهو الخوف من الأماكن العامة والغير معروفة كما تعرف يا دكتور، ولكن كان السبب من كل ذلك أني أخاف مما أكتبه، فانا لم أقرأ أعمالي قط.

تتتتتتتششششششششش

•حتى جاء اليوم الذي دخلت فيه مكتبي ومسكت القلم لابدأ بكتابة رواية جديدة، ولكن بعد أن عدت من رحلتي مع خيالات القصة تفاجئت أني لست جالسًا على مكتبي بل نائم بأرضية المطبخ وملطخ بالدماء وفي يدي سكين، ققفزت من رقدتي هلعًا لكن تعثرت قدمي بشيء فنظرت أسفلي حتى وجدت كلبي "أمان" راقدًا بجواري ملطخًا بالدماء وقد تم نحره، فقدت أعصابي وأنهمرت الدموعي من عيني فلقد سميته أمان لأني كنت أشعر بالأمان فقط لوجوده معي يؤنس وحدتي بعد أن رحل أبي منذ طفولتي ومن بعده أمي منذ عامان مضوا، بعد أن أفقت من غفلتي حملته وأخذت جسده الطيب ودفنته في أرض خاوية على أطراف مسكني، وعندما عدت حاولت أن أستوعب ما حدث، عدت بذاكرتي لكل شيء، فلا يوجد بالمنزل سواي أنا وأمان، كنت قد أخرجته من مكتبي قبل أن أشرع في الكتابة، وهنا قررت أن أذهب واقرأ ما كتبت وقلبي ينتفض من صدري خوفًا،

فأنا لا أحب العنف بكل صوره ولكن يجب أن أتجرأ وأعبر خليج خوفي لأصل لتفسير لما حدث، أقتربت من المكتب وأمسكت الورق وتفاجئت أنني لم أكتب سوى ورقة واحدة لم تكتمل حتى وكتب فيها "يخرج عماد من غرفته غاضبًا من نباح كلبه المستمر والذي أزعجه كثيرًا فذهب وسحب سكينًا من المطبخ ونده على الكلب بصوت خافض وهو يخفي السكين خلف ظهره ليجده قد قدم له مسرعًا يلهث بلسانه القذر النجس، فربت على رأسه بحنو وعلى حين غفلة طعنه في رقبته عدة مرات حتى أفرغ ما في صوته من نباح وأنين، وحينها فقط شعر عماد بالراحة والسكينة وعاد ليكمل نومه في سبات عظيم"
تتتتتتتششششششششش

•حينها علمت ما حدث مع أمان فلقد قتلته بيدي بدم بارد دون أن أشعر أو دون أن أتذكر يمكن أن تسميها هكذا يا دكتور، ما علمته جعلني أقرر أن اقرأ جميع أعمالي واحد تلو الأخر، هل تعرف ماذا وجدت بها؟ ولماذا كانت تنال إستحسان الناشر والقراء؟ لأنها قصص مختلفة عما أعتادوا على قراءته فرواياتي جميعها تنتهي بنهايات غير مألوفة، تنتهي بإنتصار الشر بشكل دموي، الخير لا يعيش كثيرًا في قصصي، القتل والعنف هما الشهيق والزفير اللذان تتنفسهما كلماتي، الدماء هي شمس مشاهدي، والظلام هو نور الذي يضيء النهاية، ولكني أصبحت الأن بطلًا لتلك الأعمال فلقد قتلت يا دكتور لقد أزهقت روح اقرب مخلوق لي، لقد

اصبحت أخاف أن أمسك قلمي، لا أريد أن أكتب أي شيء، لا أريد أن أكون قاتلًا، ولذلك جئت لك كي تنقذني من قلمي الملعون هذا، أرجوك أنقذني منه أرجوك.

-أرجوك يا أستاذ عماد أهدئ من فضلك، سوف أخبرك بكل شيء ولكن يجب أن تهدأ أولًا، ما رويته لي يسمى في علم النفس إضطراب ثنائي القطب، وهو أنقسام أفعال وأفكار المريض به لأفعال شخصان متناقضان تمامًا أو بالأحرى النسخ الأسوء من نفس الشخص، نسخة تستطيع أن تفعل أشياء يبغطها ويكرها النسخة الأصلية، احيانًا يكون المريض على دراية كافية بنسخته الأسوء له ويحاول أن يقلل السيطرة التي تفرضها النسخة الاسوء عليه، والتي من الممكن أن تصل به حد الأكتئاب أو أن يؤذي نفسه أو للأسف تدفعه للإنتحار ظنًا أنه سوف ينهي على تلك السيطرة، وفي حالتك انت يا استاذ عماد تسيطر عليك شخصيتك الأسوء عندما تمسك بالقلم فتخرج ما فيها من عنف ودموية في عدة سطور وكلمات وقصص عنيفة، وعلى ما أظن هذا بسبب مشاهدة موت والدك أنمم عينيك وأنت صغير في حادثة السيارة والتي نجوت منها بأعجوبة، فمشهد الدماء والقسوة اللذان إجتاحا ذاكرتك وعقلك الباطن أنتجوا في النهاية تلك النسخة القاسية والتي تهرب من سيطرتها بالغفوة القصيرة أو النوم أو هذا ما تعتقده أنه حدث اثناء سيطرة النسخة الأسوء عليك حتى تتفادى الندم والعتاب النفسي، ولكن للأسف المرحلة التي وصلت لها

هي مرحلة خطرة جدًا ويجب أن تمسك أنت الأن زمام الأمور وتنقل السيطرة لك أنت وحدك، فإذا سمحت لي أريدك أن تمسك القلم وتحارب سيطرته تلك وتكتب قصة هادئة وسعيدة في عدة سطور قليلة.

•أمسك بالقلم مرة ثانية لا يا دكتور لا أستطيع، لا أريد أن أوذي أحدًا أرجوك يا دكتور.

-يجب أن تحاول، يجب أن تنتصر عليه، أنا معك لا تخف سوف تستطيع أن تهزمه، إنها حياتك أنت من حقك التحكم فيها بمفردك، ليست من حق أحد ان يتلاعب بك، أمسك القلم ولا تخشى شيئًا، ضع نصب عينيك قصة سعيدة وابدأ في قصها، أنا أجلس بجانبك لا تقلق.

•هل تظن أني استطيع.

-بكل تأكيد أمسك القلم وأمامك الورقة وابدأ.

تتتتتتتتشششششششششش .. تك .. دوم ... آآآآه ... تمت ...

تتتتتتتتشششششششششش .. تك

هنا أغلق عماد مسجل الصوت بعد أن أنهى إستماع للشريط المسجل عليه، وهو ينظر في رعب لجثة الطبيب الراقدة أمامه على الأرض وفي رقبته إنغرس قلم نحاسي، ووعى جيدًا ما حدث في تلك الجلسة حتى غفى بجوار الطبيب بعد أن طعنه، لم يكن أمامه سوى أن يقرر الهروب بأسرع وقت، وقبل أن يخرج مهرولًا ذهب لمكتب الطبيب وأخرج الشريط بمسجل الصوت ثم إلتفت وأخذ الورقة التي كانت على سطح المكتب وقد كتب فيها "يستغل عماد إنشغال

الطبيب النفسي بالشرود نحو مكتبته ويباغته من الخلف ويطعنه بالقلم النحاسي في قصبته الهوائية وهو يضحك منتشيًا بضحكة عالية..تمت"

****

تمت بحمدالله